الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة عبد الحفيظ بالوصوف –ميلة-
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

المستوى: السنة الأولى ماستر

السداسي: السادس

المادة: تاريخ الأدب العربي –أعمال موجهة-

الأستاذ: سميرة بوجرة

النثر في العصر الأموي: الرسالة

رسالة شوق ووداع لعبد الحميد الكاتب

النص:

أما بعد، فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والشرور، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها، ومن عضته بنابها ذمها ساخطاً عليها، وشكاها مستزيداً لها. وقد كانت أذاقتنا أفاويق استحليناها ثم جمحت بنا نافرة، ورمحتنا مولية، فَمُلح عذبها، وخشن لينها، فأبعدتنا عن الأوطان، وفرقتنا عن الإخوان، فالدار نازحة، والطير بارحة.

وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعداً، وإليكم وجداً، فإن تتم البلية إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا، وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار عدونا نرجع إليكم بذل الإسار، والذل شر جار.

نسأل الله تعالى الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء، أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة، في دار آمنة، تجمع سلامة الأبدان والأديان، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين.

التحليل

1. عبد الحميد الكاتب:

نشأة عبد الحميد الكاتب

وكان أبوه يُسمَّى يحيى بن سعيد العامريمن سلالة غير عربيَّة، من أهل الشام الذين دخلوا في الإسلام وتعلَّموا العربيَّة، ولا يُعرف متى ولا أين وُلِد عبد الحميد في أرض الشام، وإن كان من المرجَّح أنَّه وُلِد في خلافة الوليد بن عبد الملك (86-96 ه) في دمشق أو قريبًا منها.

وكانت الدولة آنذاك للأمويّين وعاصمتهم السياسيَّة مدينة دمشق، التي بنوا فيها المساجد والمدارس والقصور، وأنشأوا فيها الحدائق والدواوين والحصون والقلاع، وأصابها

من عناية الأمويّين ما صارت به قبلة الناس من كلِّ صوبٍ وحدب، فاتَّسع عمرانها، وصُبِغت بصبغةٍ حضاريَّةٍ واضحة المعالم، وصارت موطنًا رفيعًا من مواطن الثقافة والأدب في العالم الإسلامي، ووفد إليها الناس في مختلف شئونهم، وأضحت تُعدُّ من أعظم مدن العالم وأجملها، ونَعِمَ سكَّانُها بالعدل والأمن والثراء، ونَعِمَت كلُّ العناصر الأجنبيَّة فيها بالحرّيَّة، وعاملهم المسلمون بالتَّسامح، حتى رضوا بسلطان العرب، وطرحوا المسيحيَّة ودخلوا الإسلام كما يقول غوستاف لوبون في كتابه "حضارة العرب" :"وكانت الشام أحد الأقاليم الكبرى في الإمبراطوريَّة الإسلاميَّة آنذاك، وتشمل: فلسطين، والأردن، ودمشق، وحمص، وقنسرين. وتتَّصل بإقليم العراق وبإقليم الجزيرة وأرمينيَّة بصلاتٍ وثيقة."
وفي ظلِّ الأمويين اتَّصل الفكر العربي بالثقافة والآداب الإغريقيَّة والرومانيَّة في الشام ومصر، وكان الأدب الروماني السائد فيهما قُبيل الفتح العربي تطويرًا جديدًا للآداب اليونانيَّة في عصرها الإسكندري الروماني؛ هذا العصر الذي يبدأ بدخول أثينا في حكم الرومان في القرن الأوَّل قبل الميلاد، وينتهي بـ الفتح الإسلامي لهذه البلاد في النصف الأوَّل من القرن السابع الميلادي، كما اتَّصل العقل العربي كذلك في مدن العراق بالثقافة الفارسيَّة القديمة خاصَّةً في مدينة البصرة المشهورة، وكان ملوك إيران وخاصَّةً سابور بن أردشير في أواسط القرن الثالث الميلادي، وكسرى أنوشروان (578-531م) قد بذلوا كثيرًا من الجهد في نقل الثقافة الإغريقيَّة إلى ثقافة بلادهم، وقام التراجمة السريانيُّون بذلك العبء؛ حيث نقلوها أوَّلًا إلى الفارسيَّة، ثم نقلوها إلى لسانهم السرياني، ونقلوها أخيرًا إلى اللغة العربيَّة في ظلال العصر الإسلامي وفي عهد الأمويّين والعبَّاسيّين.

ثقافة عبد الحميد الكاتب

تعلَّم عبد الحميد الكاتب اللغة العربيَّة وبلاغة العرب وتفوَّق فيهما، فسلس لسانه، وجادت لغته، وظهرت مواهبه في الأدب والبلاغة والبيان والخطابة والكتابة، وعمل في أوَّل أمره معلِّمًا، وتنقَّل في البلدان، وكانت ثقافة الأدب في أيَّامه مزيجًا من الثقافة العربيَّة الإسلاميَّة، ومن التاريخ والأنساب والقصص والسير ومعرفة أيَّام العرب وتاريخ العجم، وأحيانًا يُضاف إلى ذلك ثقافة أجنبيَّة؛ كالثقافة الفارسيَّة، أو الإغريقيَّة، أو الرومانيَّة، أو المصريَّة القديمة، أو الهنديَّة. وفي رسالة عبد الحميد إلى الكتَّاب ما يُوضِّح لنا أصول الثقافة الأدبيَّة في عصره.

وقد تتلمذ عبد الحميد في الكتابة على أبي العلاء سالم الكاتب السياسي لـ هشام بن عبد الملك125–105) هـ= 72-743م)، ويروي ابن النديم في "الفهرست" أنَّ أبا العلاء نقل إلى العربيَّة رسائل أرسطو إلى الإسكندر وذلك يدلُّ على تضلُّعه في الثقافة والأدب واللغة اليونانيَّة، وكان أبو العلاء من الواضعين لنظام الرسائل الأدبيَّة ولتقاليد الكتابة الفنِّيَّة، وله رسائل كثيرة كما يذكر ابن النديم، وكان صهرًا لعبد الحميد؛ إذ كان زوج أخته. وكان جبلة بن سالم يتولَّى الكتابة السياسيَّة في ديوان الرسائل لهشام -أيضًا- وصديقًا حميمًا لعبد الحميد الكاتب، وكان جبلة يعرف الفارسيَّة، وهو أحد المترجمين منها إلى العربيَّة، كما كان صديقًا حميمًا لعبد الحميد ابن المقفع (106-142هـ760-715 =م)، وابن المقفع فارسي الأصل وأحد المترجمين من اللغة الفارسيَّة إلى اللسان العربي كذلك، وذلك كله يدعنا نُرجِّح أنَّ عبد

الحميد إلى جانب ثقافته العربيَّة كان يعرف اليونانيَّة والفارسيَّة. وزكي مبارك في كتابه "النثر الفني" يُرجِّح أنَّ عبد الحميد كان يُجيد الفارسيَّة ويعرف آدابها وينقل منها إلى العربيَّة، ويُؤيِّد ذلك قول أبي هلال العسكري (ت 395هـ=1005م) في كتابيه "الصناعتين" و"ديوان المعاني :"إنَّ أبا هلال استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها من اللسان الفارسي فحوَّلها إلى اللسان العرب. ويقول زكي مبارك: إنَّ عبد الحميد أوَّل من نقل تقاليد الفرس إلى الكتابة العربيَّة". ويُؤيِّد الدكتور طه حسين في كتابه "من حديث الشعر والنثر" أنَّ عبد الحميد كان شديد الاتِّصال بثقافة اليونان، متأثِّرًا بها أشدَّ التأثير في فصوله الأدبيَّة.

الكاتب السياسي لمروان بن محمد

وذاعت شهرة عبد الحميد الكاتب وعرفت مواهبه الأدبيَّة وثقافته الكثيرة، فقرَّبه إليه الأمير الأموي مروان بن محمد حاكم إقليم الجزيرة وأرمينيَّة، هذا الإقليم الغني الممتدُّ الأطراف الذي كان يشمل بلاد الموصل وأذربيجان وولايات أرمينيَّة، وكان مروان قد تولَّى الإمارة على الإقليم بعد وفاة والده محمد مروان الأموي، ولم يلبث الأمير مروان أن قاد جيشًا كثيفًا من أبناء الجزيرة وأرمينيَّة وزحف على الشام فاستولى على أكثر مدنه، ثم زحف على دمشق ودخلها وتولَّى أمور الخلافة الأمويَّة عام (126هـ=744م.(كان عبد الحميد يتولَّى شئون ديوان الرسائل للأمير مروان بن محمد أثناء ولايته للجزيرة وأرمينيَّة، وصار وثيق الصلة به، وازدادت مكانته عنده، ومنحه الأمير ثقته الكبيرة التي كان عبد الحميد جديرًا بها، وصدرت عنه رسائل سياسيَّة كثيرة في ذلك العهد، ولمـَّا أُخِذَت البيعة لمروان في جميع مدن الشام بخلافة المسلمين سجد مروان شكرًا لله، وسجد أصحابه إلَّا عبد الحميد، فقال له مروان: لِمَ لا تسجد؟! فقال: أعلى إن كنت معنا فطرت عنَّا؟ قال مروان: إذَنْ تطير معنا، قال: الآن طاب لي السجود وسجد، وصار عبد الحميد الكاتب بعد أن تولَّى مروان الخلافة رئيسًا لديوان الرسائل في دمشق والكاتب الأوَّل للخليفة الجديد وصدرت عنه رسائل أدبيَّة وسياسيَّة نالت شهرةً فنِّيَّةً كبيرة.

حول الرسالة (شوق ووداع)

هذه رسالة وجدانية خطَّها عبد الحميد الكاتب على عجلٍ، وهو هارب مع مروان بن محمد تتقاذهما الدروب وتلاحقهما سيوف العباسيين، الذين تمَّ لهم الأمر بعد هزيمة الجيش الأموي في معركة الزّاب 132ه. تناولت فكرة عامة هي إشعار الأهل بالخطر الدّاهم عليه وتوديعهم، ويمكن أن نلخص أهم ما جاء في الرسالة في النقاط الآتية:

-تقلبات الدنيا: أبدى الكاتب في البداية رأيه في الدنيا، التي لا تثبت على حال. فقال: إنّ الله جعلها مزيجا من الخير والشر يتداولان على الناس، والناس فيها فريقان: فريق أسعده الحظ، فهو راضٍ بوضعه سعيد بنصيبه. وفريق غاضب على الدنيا لا يفتأ يذمها ويشكو حرمانها له. ولا يبرح يسألها خيراتها ومتاعها.

ثم يخص الكاتب نفسه بالحديث، فيقول: إن الدنيا منحت له خيراتها العميمة، فسَعِدَ بذلك، وعاش عيشة دَعَة واطمئنان، ولكن لم تستقر له على ذلك الحال، فنفرت منه، وأدبرت

عنه مثل الدابة الجامحة، فمَلُحَ ما كان منها عذبا، وخشن ما كان ناعما؛ فقد اضطرته الدنيا إلى الهيام على وجهه في الأودية والشعاب بعيدا عن الديار والإخوان؛ فالدار التي كانت تؤويه أصبحت عنه نائية بعيدة، وليس في الأمر إلاّ مل يدعو إلى الطيرة والتشاؤم.

-شوق ويأس: لقد أفصح الكاتب لأهله عن شعوره بالخطر المحدق به وبمن معه؛ فهو هارب تزيده الأيام إلى أهله شوقا وعنهم بعدا. ولا يدري أيقتل مع من معه، وهو أقصى ما يمكن أن تكون عليه المصيبة، أو يؤسر فيقتاد مذلولاً؟

-دعاء وابتهال إلى الله: يتضرع الكاتب إلى الله سبحانه، ويسأله أن يغشاه وذويه برحمته الغامرة وبرّه الفائض، وأن يجمع الشمل أخرى في بلادٍ يشعر فيها بالأمان، وتتحقق فيها سلامة الأبدان والأديان.

بلاغة وأسلوب عيد الحميد الكاتب: إذا أمعنا النظر في الرسالة نجد الكاتب قد اختار ألفاظا مناسبة لمقام الرسالة وموضوعها، مواتية للغة أهل ذلك العصر، وقد اعتمد الكاتب على الأسلوب الخبري؛ لأنه في مقام تبليغ الأخبار، ووصف المشاعر يقتضي ذلك، واستعان بعدد من الصور البيانية لنقل إحساسه مثل الاستعارة في قوله "جمحت بنا نافرة" وكناية في قوله "ظفر جارح" وهي كناية عن موصوف وهم عسكر بني العباس.

وقال عنه صاحب العقد الفريد أنه أول من فتق أكمام البلاغة وسهل طرقها، فقد جاء عبد الحميد الكاتب بطريقة جديدة في الكتابة العربية شرعها لكل من يحمل القلم بعده، بذلك بحق ما قالوا افتتحت الكتابة بعد الحميد واختتمت بابن العميد.